الشعر العربي ودوره في المحافظة على اللغة العربية

د. علي مفتاح راشد

مقدّمة

إنّ الشعر من الفنون الجميلة والرائعة تلك الفنون التي سمّاها العرب الآداب الرفيعة كالرسم والنحت؛ وغيرهما من الفنون المختلفة الأخرى.

والشعر يصور الكثير من الأشياء عن طريق الخيال، كي يعبر عن إعجابنا بتلك الأشياء باللفظة المعبرة والمعاني القوية.(١)

والشعر ديوان العرب كما يقال، فهو يعبر عن مجدهم وتاريخهم، حيث سجلوا فيه كل ما يتعلق بحياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، وكل ظروفهم المعيشية.

ويعد هذا الشعر من " أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع، وعدم احتياجه لرقي في العقل، أو تعمق في العلم، أو تقدم في المدنية".(٢)، وكان العرب أشعر الأقوام، وذلك بفعل فطرتهم السليمة، ولغتهم المتسعة، وبيئتهم المساعدة للخيال، وصفاء قريحتهم، وحريتهم الكاملة في التعبير.(٣)

والشعراء على اختلاف أماكنهم كانوا يتكلمون لغة وسطية واحدة، وذلك لأنّ " القبائل العربية . . . اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى، كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة، ومن ثمَّ اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلا جدا".(٤)، وكان الشعر السلاح الاقوى وبخاصة في القدم، ولسان حال الأمة، فحمل الكلمة الفصيحة، والقواعد السليمة، والصورة الرائعة في جميع اقطار الأرض، وذلك بفعل تلك التراكيب اللغوية السليمة التي عن طريقها حفظ اللغة العربية التي أصبحت فصحى فيما بعد.

وللشعر دور كبير في المحافظة على هذه اللغة، ولمعرفة هذا الدور الذي قام به، سأتحدث عنه في مختلف العصور مستشهدا ببعض الأشعار لبعض أشهر شعراء كل عصر للتدليل فقط على ما سأقول. ولكن قبل الحديث عن دوره سألقي نظرة سريعة عن نشأة اللغة العربية ووحدتها.

نشأة اللغة

اللغة العربية إحدى اللغات السامية، التي ترجع إلى أبناء سام بن نوح عليه السلام، ويريدون بالسامية تلك اللغات التي ترد إلى اللغة " الآرامية والكنعانية والعربية" (٥)، وغيرها من اللغات السامية الأخرى.

والحديث عن النشأة الاولى لهذه اللغة ليس بالأمر السهل، وذلك لأن التاريخ لم يواكبها إلا وهي في وفرة اكتمالها، والنصوص الحجرية الاولى التي تم اخراجها قليلة، لذلك لقد مرت بأطوار وتلك الأطوار وحدت اللهجات وهذبت الكلمات.

ولغات العرب على كثرة تعددها ترجع إلى لغتين : لغة الشمال ولغة الجنوب، ومع مرور الزمن صارت لغة واحدة (٦) ، لذلك وصلت إلينا في صورة أدبية وأخرى شعبية، أما الصورة الأولى فإنها تتمثل في الشعر والنثر الجاهلي، وأما الصورة الثانية فنلحظها في كتب اللغة والنحو التي شملت لهجات العرب.

فالمتمعن في الصورة الأولى التي صنعها الشاعر والخطيب والأديب يجدها لغةً مشتركة من جميع جهات الجزيرة العربية، اتخذها الشاعر وسيلة للتعبير عمّا يجول في خاطره، واتخذها الخطيب للتأثير في سامعيه دون أية اعتبارات أخرى، فصارت لغة مشتركة وتطورت قبل الإسلام، وكان لازما من أن تنشأ هذه اللغة في مكان معين فنشأت في مكة، وذلك لظروف دينية واقتصادية وغيرها.

أما الظروف الدينية، فذلك لأن مكة

كانت منذ زمن طويل قبل الإسلام بقعة مقدسة يفد إليها العرب من كل بقاع الأرض ليحجوا إليها؛ وهذا بالطبع يؤدي إلى وجود أعداد كبيرة من العرب حولها، فيحدث الاختلاط بين البشر ومن هذا الاختلاط تنشا اللغة المشتركة دون قصد منهم.

أما الظروف الاقتصادية التي أسهمت في إيجاد هذه اللغة، فقد تمثل في التجارة لأن أهل مكة كانوا تجاراً ينتقلون بتجارتهم إلى جميع الأماكن سواء في الشتاء أو الصيف دون استقرار. هذه التجارة جعلتهم أغنياء وأثرياء إلى جانب احتضانهم للبقعة المقدسة، كل هذه الأسباب حققت لهم السلطة السياسية وبالتالي صاروا أقوى نفوذا من غيرهم، وأصبحت لهجتهم القرشية من أقوى اللهجات في تكوين اللغة العربية المشتركة. (٧)

وهكذا سادت هذه اللغة الموحدة كلغة أدب عامة واستوت بفعل نصوص الشعر الجاهلي، وبخاصة في القرن الخامس الميلادي، ومن ثمَّ انتهى تتويجها بنزول القرآن الكريم.(٨)

وحـدة اللغـة

يجمع معظم العلماء من الدارسين والباحثين في الأدب العربي وتأريخه على أن اللغة الوسطية المشتركة هي لغة الخاصة من الشعراء والخطباء، وغيرهم على اختلاف قبائلهم وأماكنهم، وأن اللغة الموحدة بينهم تمخضت فيها جميع اللهجات العربية بعد عملية التهذيب التي شملتها، الأمر الذي أسهم في زيادة الرصيد اللغوي للعربية الفصحى، لأن تلك اللغة المشتركة هي التي تتسع لإلقاء الشعر في النوادي الأدبية، وإلقاء الخطب في جميع المحافل والتجمعات، وذلك لأن القائمين بها هم صفوة من الناس تميزوا بالثقافة الواسعة والذوق الرفيع، لذلك كان لزاما عليهم أن تكون لهم لغة تفوق لغة الحياة اليومية العادية وما فيها من لهجات قبلية.

والمتمعن في الكتب الجامعة لأشعار الكثير من فحول الشعراء ودواوينهم لا يجد أثرا لتلك اللهجات إلا فيما ندر. والباحث في أشعار تلك النخبة من الشعراء الذين استخدموا اللغة الموحدة يدرك كيف تم الحكم بينهم على من يكون أشعر الناس؟.

فلو كان كل شاعر منهم ينظم بلهجة قبيلته لما حدث ذلك التنافس وتلك الموازنات بينهم، لأن المفاضلة والتقييم لابد له من أمر يلتقي فيه الجميع وهو وحدة اللغة (٩)، لأنه " لابد لأولئك الشعراء الذين جاؤوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعجة أو كشكشة لينال إعجاب سامعيه ولا يكون موضع سخريتهم وهزئهم وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضَّل شاعر على شاعر في تلك المناظرات إذا كان القياس مختلفاً وأداة القول متباينة. " (١٠)

وهكذا يمكن القول بأن تلك اللغة الوسطية الموحدة التي اتخذها الأدباء والشعراء سنداً لنتاجهم كانت عاملا مساعداً لدعم اللغة العربية الفصحى، وبذلك أصبحت سبباً في توحيد اللغة بين جميع القبائل العربية عل اختلاف لهجاتهم، ومقياساً للتفاضل بين المبدعين الذين أسهموا بدورهم في تطور العربية وآدابها .

دور الشعر في المحافظة على اللغة العربية في العصر الجاهلي

يعد الشعر الجاهلي الصورة الواضحة والصادقة للحياة العربية، لأنه عبّر أصدق تعبير عن عادات العرب وتقاليدهم ومُثلهم، وذلك بفعل ما احتواه من قيم فنية جليلة، وألفاظ دقيقة، ومعانٍ واضحة جعلته بحق قمة الشعر العربي. وقد أصبح نموذجا يحتذى لجميع شعراء العصور اللاحقة، حتى صاروا يقلدونه ويحاكونه، وذلك لما فيهمن نضج فني ولغوي شاسع. (١١)

والشعر الجاهلي هو الرصيد اللغوي الكبير للغة العرب في جاهليتها، لأنه كان في زمن الفطرة والسليقة والنقاء، فالعرب اعتزوا بلغتهم كثيرا وافتخروا بها في جزيرتهم وحافظوا عليها خوفا من الشوائب التي تفسدها، فبقيت نقية بفعل انغلاقهم عن أنفسهم، وهذا بالطبع يعد دورا كبيرا في المحافظة على هذه اللغة. (١٢)

والمتمعن في شعر هذا العصر، وبخاصة شعر المعلقات على اختلاف عددها ولامية العرب، وغيرهما من الأشعار الأخرى يجد تلك اللغة الرائعة والدقيقة التي تمثل الاحتجاج اللغوي على مر العصور. فلغة الشعراء الجاهليين على العموم صارت مثلا للبلاغة العربية في كل العصور، وذلك " لبعدها عن مفاسد العجمة، وهي معروفة بخلوها من الحشو وليس فيها من زخارف المدنية كالبديع . . . إلاّ بقدر الملح من الطعام ".(١٣)

ونتيجة لدقة تراكيب هذه اللغة المستعملة في أشعارهم تستنتج أن كل كلمة أو لفظة جاءت في مكانها، ولها جرس نغمي

بفعل تركيبة حروفها المختارة بعناية على الرغم من اختلاف بعض القبائل في نطق الحروف كالشدة والإمالة وغير ذلك، إلاّ أن ذلك لم يؤثر على المعنى المراد.(١٤)

وهذا أيضا عامل من عوامل المحافظة على اللغة العربية منذ القدم، إضافة إلى أن الشعر الجاهلي تجده كامل الصياغة من حيث الخصائص اللفظية، فتراكيبه تامة ولها مدلولات حسية مؤثرة، وهو ما يصور مدى الرقي اللغوي لدى شعراء العصر الجاهلي، وربما يرجع السبب في ذلك لمدى اهتمامهم بقصائدهم وتنقيحها، واستبدال كل كلمة لا تليق بالقصيدة حتى سميت بعض قصائدهم بالحوليات.(١٥)

وسنعرض بعضا من أشعار هؤلاء الصفوة من الشعراء لنصور مدى براعتهم في اختيار الألفاظ وحس الصياغة، فهذا امرؤ القيس ومعلقته التي حملت في ثناياها الكثير من الشواهد اللغوية، والتراكيب البلاغية التي مازالت نموذجاً حيا إلى وقتنا الحاضر تلك المعلقة التي ابتدأها بقوله :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقطِ اللوى بين الدَّخولِ فحوملِ(١٦)

فمن إجادته في دقة التعبير واختيار اللفظة المعبرة قوله في صفة الفرس :

مكرٍ مفرٍ مُقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمودِ صخرٍ حطه السيلُ من علِ
كُميتٍ يزل اللّبْدُ عن حال متنه
كما زلّت الصَّفْواءُ بالمُتَنزّلِ(١٧)

فالمتمعن في هذين البيتين يدرك مدى اللغة التي كان يتحدث بها امرؤ القيس من خلال رقة الألفاظ ولطف التشبيه، وهذه الدقة المتناهية في التراكيب والكلمات.

وقوله أيضا في وصف الليل :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سدوله
عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي
فقلتُ له لمّا تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل(١٨)

فالمدقق في هذه الصور التشبيهية يجد الأسلوب اللغوي الجيد الذي جاء به الشاعر هنا، ذلك الأسلوب الجزل المعبر عن الألفاظ الواضحة الموجزة، فالكلمات دقيقة حملت معاني القوة والسرعة. والمتمعن في المعلقة بوجه عام يستنتج أيضا الكثير من الفوائد اللغوية والمُلح الأدبية المتمثلة في الخطاب؛ وقلب الحروف، والتقديم والتأخير، وبراعة الاستهلال، وأفعال الأمر والطلب، والإجازة والوصف، وغير ذلك من الفوائد الأخرى ونحوها، وهذا دليل " على أنه كان يملك أعنة اللغة في يده "(١٩)

وللتدليل على دور الشعر الجاهلي في المحافظة على هذه اللغة نأخذ مثالاً آخر لشاعر آخر وهو زهير بن أبي سلمى، ومعلقته التي يقول مطلعها :

أمِن أُمِّ دمنةٌ لم تكلّمِ
بحومانةِ الدّرّاجِ فالمتثلّمِ
ودار لها بالرقمتين كأنّها
مراجيعُ وشمٍ في نواشرِ معصَمِ(٢٠)

وقوله في الحكم :

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة
وإنْ خالها تخفى على النَّاس تُعلَمِ(٢١)

وقوله في المدح أيضا :

يمينا لنعم السيدان وجُدتما
على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبرَمِ(٢٢)

فالدارس لأبيات هذه المعلقة يتبين له أن زهيراً قد صاغ أشعاره بدقة متناهية في التعبير والصفاء إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي، وكان مسيطراً على لغته إلى أبعد حد يجمع فيها أفضل الألفاظ والكلمات، إضافة إلى بعدها عن الوحشي والمعاضلة.(٢٣)، ولما لا وهو شاعر الحكمة والصدق في القول باعتباره لا يمدح شخصا إلا بما فيه. فالشاعر صاحب دقة متناهية في انتقاء الكلمات والمعاني، فصدقه الفني عكس فوائد عظيمة على لغة الشعر الجاهلي التي حفظت لنا لغتنا العربية.

والناظر إلى أشعار الصعاليك، وبخاصة لامية الشنفرى الذي يعد أبرز شعراء هذه المجموعة لوجدنا شعرا عميقا وقويا في الأسلوب واللغة ككل، وذلك بفعل التمكن اللغوي لمثل هؤلاء الشعراء، ففي اللامية التي يقول مطلعها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم
فاني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر
وشدت لطيات مطايا وأرحل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متعزَّل(٢٤)

تجد تلك المتانة والقوة والتجادل بين الألفاظ داخل الجملة من أجل المعنى الرصين، كما تجد التلقائية والعفوية والانضباط بيم كل الكلمات، إضافة إلى المواءمة التي تربط بين اللفظ والمعنى مع جزالة اللفظة ودقتها، ناهيك عن التقديم والتأخير بين الفاعل والمفعول، والفصل بين المبتدأ والخبر، وغير ذلك من المُلح اللغوية.(٢٥)

وهكذا يمكن القول بأن الشعر الجاهلي كان شعراً غنيا بلغته وأسلوبه، ومازال إلى وقتنا الحاضر محل استشهاد وحجة، فهو شعر جاء في عصر مهم جداً

لهذه اللغة التي كانت في حاجة ملحة لمن يحتوي مفرداتها ومعانيها بهذه الكيفية وفي وقت مبكر من نشأتها، وهذه تعد ثمرة من الثمرات التي قام بها هؤلاء الفحول من الشعراء تجاه لغتهم حتى وصلت إلينا خالية من الشوائب، فكان لهم الأثر البالغ في هذا الأمر، والدور الكبير في صيانة العربية من الضياع حتى توجت بالقرآن الكريم فيما بعد .

دور الشعر في العصر الإسلامي

لقد استمر الشعر في هذا العصر محافظا على اللغة العربية وقائما بالدور نفسه الذي ابتدأه في العصر الجاهلي، بل وأكثر، وذلك بفعل ما جاء به القرآن الكريم. هذا الكتاب الذي أكسب اللغة العربية جمالاً وحسنا بعدما تمّ تهذيبها به(٢٦)، حيث أضاف لها " ثروة في المعاني، ووسع دائرة اللغة العربية باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة."(٢٧)

ومن خلال ذلك طُبع الشعراء بطوابع جديدة متنوعة تمثلت في التطور اللغوي، وفي رقة الألفاظ، والوضوح المعنوي.(٢٨)، فالمتمعن في شعر لبيد بن ربيعة العامري يرى ذلك التطور في لغة شعره، حيث استخدم قواعد نحوية سليمة اسهمت في خدمة العربية الفصحى، عندما قال :

ألا كلُّ شيءٍ، ما خلا اللهَ، باطلُ
وكلُّ نعيمٍ، لا محالةَ، زائلُ
إذا المرءُ أسرى ليلةً ظنَّ أنه
قضى عملاً، والمرءُ ما عاشَ آمل
حبائلُــهُ مبثوثةٌ بسبيلـه
ويَفْنىَ إذا مـا اخطأَتـهُ الحبائـلُ(٢٩)

وكذلك الحال في لغة شعر حسّان بن ثابت القائل :

إنّ الذوائبَ من فهرٍ وإخوتهم
قدْ بينوا سُنّةً للناس تُتبعُ
يرضى بها كلّ من كانت سريرته
تقوى الإله وبالأمرِ الذي شرعوا
إنْ كان في الناسِ سباقون بعدهم
فكلّ سبقٍ لأدنى سبقهم تَبعُ(٣٠)

وقول كعب بن زهير :

مَن سرَّهُ كرمُ الحياة فلا يزلْ
في مقنبٍ من صالحي الأنصارِ
تزنُ الجبالَ رزانةً أحلامُهم
وأكفُّهم خلفٌ مــن الأمطارِ (٣١)

فالمدقق لكل هذه الاشعار يلمح أثراً إسلاميا واضحا في أقوال الشعراء الثلاثة، حيث نلمس تطوراً كبيراً في لغتهم الشعرية من حيث الأسلوب والمعنى اللذان تمثلا في السهولة والصدق والسلاسة، وهذه الأشياء جعلت شعرهم محفوظا عند عامة السامعين، وهذا بدوره أسهم في سهولة اللغة المستخدمة، وبالتالي أسهم في المحافظة عليها.

والدور نفسه تمثل في شعر شعراء النقائض الذين أعطوا حظاً من المحافظة على العربية لم يعطه غيرهم من شعراء عصرهم. وكذلك حال بعض شواعر العرب كالشاعرة الخنساء التي استطاعت أن تجسد دورها البارز في المحافظة على اللغة العربية، وذلك من خلال " براعتها في نظم القصائد، مما يدل على تمكنها من لغتها، بل وتفوقها في مرات عديدة على كثير من شعراء عصرها".(٣٢)، والدليل على ذلك عندما تفوقت على الشاعر الأعشى، وحسان بن ثابت في حكومة النابغة الذبياني. والدارس لشعرها يجد ذلك النظم الجيد وتلك اللغة الصحيحة، حيث نجد ذلك مثلا في قولها في رثاء اخيها صخر :

فخرَّ الشوامخُ مـن قتلـه
وزلزلت الأرض زلزالها
وزالَ الكواكبُ مـن فقـده
وجُلّلَت الشمسُ أجلالها(٣٣)

وقولهـا أيضـا :

سَقياً لقبركَ من قبرٍ ولا بَرِحَتْ
جودُ الرّواعدِ تسقيه وتحتلبُ
ماذا تضّمنَ مِنْ جُودٍ ومِن كَرَمٍ
ومِنْ خلائق ما فيهنَّ مُقتَضَبُ (٣٤)

فالشاعرة جاءت هنا بصور جميلة تأثرت فيها بالتعبير القرآني، إضافة إلى الكلمات المختارة بعناية، وغير ذلك من الأشعار التي خدمت بها اللغة العربية الفصحى، وهذا في حد ذاته يعد إسهاماً كبيراً في وصول العربية إلى ما وصلت إليه من تطور في عهد الشاعرة .

وهكذا، فإن شعراء العصر الإسلامي بوجه عام قد أسهموا بشكل واضح في دعم العربية، وحافظوا على وحدتها، وعملوا على تطويرها، وذلك بفضل لغتهم الجيدة وتراكيبهم السليمة متأثرين في ذلك بالقرآن الكريم الذي أسهم في صقل لغتهم التي ابتعدوا فيها عن الخشونة والوحشية الجاهلية، وتطوير أساليبهم التي تأثرت بأسلوب الذكر الحكيم الذي أبهر العرب الفصحاء والبلغاء، وبالتالي حدث التطور اللفظي والمعنوي الذي انعكس إيجابا على العربية الفصحى.

دوره في العصر العباسي

لقد فرضت الحياة العباسية نفسها على الأدباء العباسيين، وبخاصة الشعراء منهم، سواء الحياة السياسية

أو الاجتماعية أو العقلية أو الأدبية، حيث نقلت العلوم، وترجمت الثقافات التي كانت موجودة في هذا العصر، فازدهر الشعر ازدهاراً كبيراً(٣٥)، حيث " أكبَّ الشعراء على العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقا، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب يجمع حينا بين الجزالة والرصانة، وحينا يجمع بين الرقة والعذوبة"(٣٦)،إضافة إلى ذلك فقد أضافوا شيئاً جديداً وهو الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه المعارف وقواعد اللغة في منظومات جيدة وطريفة، كي يسهل حفظها (٣٧)، حتى أصبحت العربية الفصحى المثل الأعلى عندهم، وكان أهم ما حفظها ودعم سلطانها القرآن الكريم، حتى صارت لسان معظم الناس بما في ذلك حتى الشعوبيون والزنادقة.(٣٨)

وهذا الازدهار اللغوي لم يكن ليحدث لولا هؤلاء الشعراء ودعم القرآن والحديث للغة، وتشجيع الخلفاء للشعراء، ومساندة اللغويين الين كانوا حراساً للشعراء فكثير من الشعراء كانوا ينشدون أشعارهم على اللغويين فما استحسنوه قُبل، وما رفضوه لم يُقبل وعيدت صياغته.(٣٩)

ولشعراء العصر دعم كبير ودور بارز في المحافظة على اللغة العربية الفصحى أمثال : الشاعر بشار بن برد، وأبي نواس، والبحتري، والمتنبي، وغيرهم الكثير من الشعراء الذين دعموا العربية بقصائد غاية في الدقة والبلاغة.

فالدارس لبعض أشعار بشارد بن برد يجد تلك الرصانة اللغوية التي تميز بها بين معاصريه، لأنه زعيم طبقة المولدين، ولسلامة شعره وتنوعه أُولع به معظم الناس من شبان ورجال، حتى صارت له شهرة وأشعار سائرة(٤٠)، ومن أبياته الحكمية هذه الأبيات التي قالها وهي في غاية البلاغة :

إذا بلغ الرأيُ المشورة فاستعن
برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشُّورى عليكَ غضاضةً
فإنَّ الخوافي قوةٌ للقوادم
وما خير كفٌّ أمسك الغُلُّ أختها
وما خير سيف لم يؤيَّد بقائم(٤١)

ومما قاله في الصداقة والصديق :

إذا كنتَ في كل الذُّنوب معاتباً
صديقكَ لم تلقَ الذي لا تُعاتبه
فعشْ واحداً أو صلْ أخاكَ فإنه
مفارقُ ذنب مرةً ومجانبه
إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذى
ظمئتَ وأيُّ النَّاس تصفو مشاربُه(٤٢)

وبشار لم يدع غرضا من أغراض الشعر إلا طرقه وأجاد فيه، فمن قوله في الغزل :

لم يطُلْ ليلي ولكن لم أنمْ
ونفى عني الكرى طيفٌ ألم
وإذا قلتُ لها جودي لنا
خرجتْ بالصمت عن لا ونعم
نفَّسي يا عبدَ عني وأعلمي
أنني يا عبدَ من لحم ودم(٤٣)

وغير ذلك من أبواب الشعر التي طرقها الشاعر، وكان في معظم ما قال من أشعار فصيحاً في ألفاظه وبليغا في تراكيبه، فهو قائد المجددين في عصره، وخدم بما تمتع به من لغة اللغة العربية خدمة كبيرة بفعل ثقافته الواسعة وسلامة لغته من اللحن، حتى ظل " محتفظاً للغة الشعر بأساليبها الجزلة الرصينة، وقد يرق ويلين، ولكن دون أن يصيب أساليبه ضعف ووهن، إذ كان يفقه أسرار اللغة فقها دقيقا وكل ما يتصل بتلك الأسرار من رونق وبهاء وجمالا"(٤٤)، وهو بذلك يكون قد قام بدوره الفاعل في حفظ العربية الفصحى وجعلها سليمة من الشوائب في معظم نتاجه الشعري.

وإذا مررنا بأبي نواس نجده يقول شعراً دقيقاً وجيداً في امرأة :

ومُظهرَةٍ لخلق الله وُدّاً
وتلقى بالتّحيّة والسَّلام
أتيتُ فُؤادَهَا أشكو إليه
فلمْ أخلُصْ إليه منَ الزِّحام (٤٥)

وإذا تطرقنا لبعض شعر البحتري وما قاله في وصف الغيث لوجدناه يقول :

ذاتُ ارتجاز بجنين الرَّعْد
مجرورةُ الذَّيل، صدوقُ الوعد
مسفوحةُ الدمع لغير وجد
لها نسيمٌ كنسيم الوِرْد
ورنَّةٌ مثلُ زئير الأسد
ولمعُ برق كسيوف الهند(٤٦)

وأما أبو الطيب المتنبي، فقد قال :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكمُ
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنّن أن الليث يبتسمُ
ومهجة مهجتي من هم صاحبها
أدركتها بجواد ظهره حرم(٤٧)

ومن خلال هذه الأشعار التي ذكرناها نجد تلك الرقة في الألفاظ والسهولة في التراكيب، والأناقة في المظهر والعذوبة في المخارج، والسهولة في البيان، فكل هذه الإجادة والتأنق في العبارات وجدت في هذا العصر وعند هؤلاء الشعراء الذين أعطوا كثيراً من الاهتمام بلغتهم، وحافظوا عليها في أشعارهم حتى خرجت من أفواههم فصيحة ومؤثرة (٤٨) في غيرهم من

الشعراء الذين جاءوا من بعدهم، وهذا بالطبع دور كبير قامت به النخبة وغيرهم من شعراء عصرهم الذين اكبّوا على المحافظة على نتاجهم الشعري السليم خدمة للغتهم الفصحى.

دوره في العصر المملوكي

لقد تميز هذا العصر بغزارة التأليف، وكان الأديب يجمع بين الشعر والنثر بوجه عام، الأمر الذي جعل المؤلفين يؤلفون عشرات الموسوعات الدينية واللغوية والأدبية وغيرها من موسعات العلوم الأخرى التي أخذت طريقها إلى المكتبة العربية بعد نكبة بغداد الكبرى.(٤٩)

والذي يهمنا هنا الأسلوب اللغوي والأدبي العام، ذلك الأسلوب الذي اتخذه شعراء العصر دعما للغة العربية الفصحى، وحفاظا عليها، حيث عمدوا إلى التخفيف والاختزال، واكتفوا باللمح والاشارات التي بثوها في مختلف قصائدهم، حيث احتل النحو ومفرداته الحيز الأكبر في تفكيرهم، وجعلوا لتعلمه طرقاً جديدة تعتمد على التشويق والترغيب من حيث عرض المعلومة التي تخدم العربية وقرّائها، وفي الوقت نفسه هي متعة فنية ونفسية.

لقد عالج شعراء العصر مختلف المسائل النحوية الصغرى والكبرى يشرحونها ويبسطون بعضها بسطاً يجمع بين القواعد النظرية والمعنى اللطيف للمفردة النحوية؛ ويقدمونها على شكل نكتة شعرية تؤثر في نفوس السامعين، وتدعوهم للتأمل(٥٠) كما في قول الشاب الظريف، متغزلاً وشارحا :

يا ساكناً قلبي المُعنَّى
وليس فيه سواهُ ثانِ
لأيّ معنى كسرتَ قلبي
وما التقى فيه ساكنانِ(٥١)

ولو أخذنا بعض قول الشاعر صفي الدين الحلّي لوجدنا له قصيدة ابتدأها ببيت جميل في معاني الإعراب النحوي، وبألفاظ مختارة بعناية، حيث جاء فيه :

وعيونٍ في لحظهنَّ سكونٌ
هو في الفتكِ أسرعُ الحركاتِ (٥٢)

ففي كل هذه الأبيات نجد اللغة الصحيحة التي حرص عليها هذان الشاعران من أجل أن تخرج أشعارهما بصورة صحيحة خالية من الخطأ اللغوي، حيث وظفا الشعر خدمة للعربية الفصحى.

وأما البوصيري، فله الكثير من الأشعار الدينية المتميزة كالبردة التي قال في مطلعها :

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ
مَزجتَ دمعاً جرى مِن مُقلةٍ بدَمِ
أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمةٍ
وأومض البرقُ في الظلماء من إضمِ
فما لعينيكَ إنْ قُلتَ أكفُفَا همتا
وما لقلبكَ إنْ قُلت استفق يهمِ(٥٣)

وغير هذا من أبيات البردة التي تميزت بجمال الكلمة وشرف التعبير، وبلاغات التركيب والفخامة مع السهولة، حتى صارت على كل لسان عند العامة من الناس والخاصة(٥٤)، وهو الأمر الذي أسهم في دعم اللغة ومحبتها من قِبل الجميع بفضل هذا النوع من الشعر.

وأما الشاعر عمر بن الوردي، فقد تحدث في لاميته عن أهمية علم النحو والعناية بتحصيله، فقال:

جَمّلِ المنطقَ بالنحو فمَنْ
يُحرم الإعرابَ في النطقِ اختبلْ(٥٥)

فابن الوردي يدعو هنا المتعلمين إلى تزيين كلامهم وتحسين نطقهم بقواع اللغة، وذلك لما للنطق السليم من فائدة عظيمة لجمال الألسن وكمال النطق، وبذلك تتم الفائدة في تعلم معاني القرآن والسنة، بدلا من الوقوع في اللحن وتقبيح الألفاظ (٥٦)، وقد أوضح في موضع آخر من اللامية فوائد الحرف العربي (قد)، عندما قال :

قُد يُسود المرءُ من غير أبٍ
وبحُسنِ السَّبكِ قد يُنفى الزَّغلْ (٥٧)

فالشاعر هنا قد وظف اللغة في الدعوة إلى العمل فالإنسان بعمله، بحيث قد يكون شريفاً وأبوه ليس كذلك، فالشرف قد يحصل للمرء دون أبيه، وذلك بسبب همة الانسان(٥٨)، وهذا كله يدل دلالة واضحة على اهتمام الشاعر بلغته الفصحى، فوظفها نظماً جميلا، كي تُفهم وتُعلق بالأذهان كعمل منوط به تجاه لغته العربية.

وهكذا يمكن القول بأن معظم شعراء هذا العصر قد أخذوا على عاتقهم الاهتمام باللغة السليمة في أشعارهم كدلالة واضحة على ثقافتهم الواسعة من جهة، ومن جهة أخرى حفاظهم على لغتهم العربية لتصل إلى درجة السمو والكمال، وبالتالي تسمو أشعارهم.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة توصلت إلى النتائج التالية :

١- بفعل الشعراء وثقافتهم الواسعة سادت في المنطقة العربية لغة أدب وسطية موحدة؛ أدت دورها الأول في المحافظة على العربية الفصحى .

٢- إنَّ المتمعن في شعر معظم الجاهليين

يجد تلك اللغة الدقيقة التي تمثل الاحتجاج اللغوي على مرّ العصور، وإن ما قام به ذلك الشعراء الفحول يعد ثمرةً من الثمرات تجاه لغتهم الفصحى.

٣- لقد انعكس التطور اللفظي والمعنوي الذي حدث في العصر الإسلامي إيجاباً على العربية الفصحى.

٤- إنّ ما تميز به الشعراء العباسيون من الرقة في الألفاظ، والسهولة في التراكيب، والتأنق في العبارات، يعد دوراً كبيراً قامت به هذه النخبة تجاه لغتهم العربية السليمة .

٥- لقد تميز الأسلوب اللغوي في العصر المملوكي بالاهتمام بالمنظومات التعليمية التي دعت إلى التخفيف والاختزال، واللمح والاشارات، كطرق جديدة للتشويق والترغيب في عرض المعلومة التي تخدم العربية وقرّائها .

هـواش البحـث ومصـادره

١ - ينظر : زيدان، جرجي، تاريخ الآداب العربية، بيروت – لبنان، منشورات دار مكتبة الحياة، لا . ط، ١٩٩٢م، ج١ ، ص٥٣ .

٢ – الزيات : أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، بيروت – لبنان، دار الثقافة، ط٢٨، ١٩٧٨م، ص٣٧ .

٣ – ينظر: المصدر نفسه، ص٣٨، ٣٩ .

٤ – ضيف : شوقي، العصر الجاهلي، القاهرة – مصر، دار المعارف، ط١٥، ١٩٩٢م، ص١٣١.

٥ – الزيات: أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص١٩ .

٦ – ينظر : المصدر نفسه، ص٢٠، ٢١ .

٧ – ينظر : عبد التوّاب، رمضان، فصول في فقه العربية، القاهرة – مصر، مكتبة الخانجي، لا. ط، ص٧٧ – ٨٠ .

٨ – ينظر : ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ص١٢٠ .

٩ – ينظر : الجطلاوي، محمد يوسف، الشعر الجاهلي، بنغازي – ليبيا، جامعة قار يونس، لا . ط، لا . ت، ص٤٠، ٤١ .

١٠ – أنيس : إبراهيم، في اللهجات العربية، القاهرة – مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، لا . ط، ١٩٦٥م، ص٣٩، ٤٠ بتصرف .

١١ – ينظر : الجبودي، يحي، الشعر الجاهلي، بنغازي – ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، ط٦، ١٩٩٣م، ص٧٩ .

١٢ – ينظر : الجطلاوي، محمد يوسف، الشعر الجاهلي، ص١١ .

١٣ – زيدان : جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج١، ص١١ .

١٤ – ينظر : الجبودي، يحي، الشعر الجاهلي، ص١٥٩ .

١٥ – ينظر : ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ص٢٢٦.

١٦ – الزوزني : أبو عبدالله الحسين، شرح المعلقات السبع، بيروت – لبنان، دار صادر، لا . ط، لا . ت، ص٧ .

١٧ – المصدر نفسه، ص٣٠، ٣١ .

١٨ – نفسه، ص٢٦ .

١٩ – ضيف : شوقي، العصر الجاهلي، ص٢٦١ .

٢٠ – سُلمى : زهير، الديوان، بيروت – لبنان، دار صادر، لا . ط، لا . ت، ص٧٤ .

٢١ – الديوان، ص٨٨ .

٢٢ – الديوان، ص٧٩ .

٢٣ – ينظر : ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، ص٣٢٨ .

٢٤ – الشَّنفرى : عمرو بن مالك، لامية العرب، شرح، عبد الحليم حفني، القاهرة – مصر، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٨م، ص٨ .

٢٥ – ينظر : اليوسف، يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، الجزائر – الجزائر، دار الحقائق، ط٣، ١٩٨٣م، ص٢٤٩ – ٢٥٦ .

٢٦ – ينظر : الويبران، ماجد محمد، دور المرأة في المحافظة على اللغة العربية على مر العصور، منتدى مجمع اللغة العربية، ١٠ . ١ . ٢٠١٤م، ص١ .

٢٧ – الزيات : أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص١٠٣ .

٢٨ – ينظر : يوسف، هنية علي، الشعراء المخضرمون بين الجاهلية والإسلام، بنغازي – ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، لا . ط، ١٩٨٩م، ص١٧٠ .

٢٩ – ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله، الشعر والشعراء، بيروت – لبنان، الدار العربية للكتاب، ط٣، ١٩٨٣م، ج١، ص١٩٩ .

٣٠ – الانصاري : حسّان بن ثابت، الديوان، بيروت – لبنان، دار صادر، لا . ط، لا .ت، ص١٤٥ .

٣١ – زهير : كعب، الديوان، تحقيق، محمد يوسف نجم، بيروت – لبنان، دار صادر، ط٢، ٢٠٠٢م، ص٤٣ .

٣٢ – الويبران : ماجد محمد، دور المرأة في المحافظة على اللغة العربية على مر العصور، ص١ .

٣٣ – الخنساء : تماضر بنت عمر، الديوان، شرح، حمدو طمَّاس، بيروت – لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٠١ .

٣٤ – الديوان، ص١٨ .

٣٥ – ينظر : ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، القاهرة – مصر، دار المعارف، ط٨، لا . ت، ص٥ .

٣٦ – ينظر : المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

٣٧ – المصدر نفسه، والصفحة نفسها .

٣٨ – نفسه، ص، ٩٣ .

٤٠ – ينظر : الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، ص٣٠١ .

٤١ – برد : بشّار، الديوان، شرح، حسين حموي – بيروت – لبنان، دار الجيل،ط١٩٩٦،١م، ج٢، ص٥٠٣ .

٤٢ – الديوان، ج١، ص٢٦٦ .

٤٣ – الديوان، ج٢، ص٤٩٩ .

٤٤ – ضيف : شوقي، العصر العباسي الأول، ص٢١٩، ٢٢٠ .

٤٥ – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٦٩٨ .

٤٦ – البحتري، الديوان، تحقيق، حسن كامل الصيرفي، لا . ك، دار المعارف، لا . ط، ١٩٦٣م، ج١، ص٥٦٧ .

٤٧ – المتنبي : أبو الطيب أحمد، الديوان، بيروت – لبنان، دار صادر، لا . ط، لا . ت، ص٣٣٢.

٤٨ – ينظر : خفاجي، محمد عبد المنعم، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، القاهرة – مصر، دار الطباعة المحمدية، لا . ط، لا . ت، ص١٠٧ .

٤٩ – ينظر : باشا، عمر موسى، تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)،بيروت – لبنان، دار الفكر المعاصر، ودمشق – سورية، دار الفكر، ط١، ١٩٨٩م، ص٣٩ .

٥٠ – الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، طرابلس – لبنان، جروس برس، ط١، ١٩٩٥م، ص٤٢٣ – ٤٢٥ .

٥١ – الظريف : الشاب، الديوان، تحقيق، شاكر هادي شكر، بيروت – لبنان، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٩٨٥م، ص٢٢٩ .

٥٢ – الحلّي : صفي الدين، الديوان، شرح، عمر فاروق الطبّاع، بيروت – لبنان، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٥٤ .

٥٣ – البوصيري : شرف الدين أبو عبدالله، الديوان، تقديم، أحمد حسن، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، لا . ط، ٢٠٠٥م، ص١٦٥ .

٥٤ – ينظر : باشا، عمر موسى، تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، ص٦٧٧ .

٥٥ – الوردي : زين الدين عمر، الديوان، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، القاهرة – مصر، دار الآفاق العربية، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٧٨ .

٥٦ – ينظر : ابن كرامة الله، مصطفى، شرح لامية ابن الوردي في الحكم والأخلاق، السعودية، دار كنوز اشبيليا للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٦٦ .

٥٧ – الوردي : زين الدين عمر، الديوان، ص٢٧٩ .

٥٨ – ينظر : ابن كرامة الله، مصطفى، شرح لا مية عمر بن الوردي في الحكم والأخلاق، ص١٠١ .